الفنّ.. والحياة..
وفريد الأطرش

بقلم : محمد عبد الوهاب

obeikandl.com

obeikandl.com

عندما جاء الأستاذ فريد الأطرش إلى مصر لأول مرة . . لم يكن المناخ الفنى مهيأ لاستقباله هو . . بقدر ما كان مهيأ لاستقبال أخته . . المرحومة أسمهان .

كانت الأصوات السائدة والمتنافسة فنياً تتراوح بين منيرة المهدية وفتحية أحمد وأم كلثوم . وفى وسط تلك المنافسة ، جاءت أسمهان متميزة بصوت حلو النغمات حديث الأسلوب مختلف النبرة . . بالإضافة إلى الصفات الأخرى التى لا بد أن تتوافر فى صوت المطربة التى تريد أن يكون تعبيرها سليماً وممتازاً فى الغناء الشرقى .

وأمام العقبات الكثيرة التى وجد فريد الأطرش نفسه يواجهها . . وأهمها كما ذكرت أن المناخ الفنى لم يكن مهيأ أساساً لاستقباله . . فإن فريد الأطرش لم يجد بدًّا من أن يبدأ حياته الفنية عازفاً على العود مع الفرقة الموسيقية التى تصاحب أسمهان فى الغناء .

فى تلك الفترة حاول فريد الأطرش أيضاً أن يعمل بمفرده . . عازفاً ومطرباً عند المرحومة بديعة مصابنى . . ولكنه لم يحقق لنفسه النجاح المطلوب .

بل إن فريد واجه فى الحقيقة ما هو أكثر من ذلك . . خلال تلك السنوات المبكرة من حياته . إن الذين عاصروا الحياة الفنية فى ذلك الوقت يتذكرون مثلا النكتة الشهيرة التى أطلقها عليه بعض الساخرين وقتها ، وعلى رأسهم رجل محب للغناء والمغنين اسمه محمد دبشة .

تقول النكتة إن أحد المستمعين سأل زميله : من هذا العازف على العود الـــذى

بصاحب أسمهان فى غنائها ؟

قال له الآخر : إن اسمه هوفريد . . الأطرش .

رد الأول : يابخته !

ربما من أجل هذه العقبات كانت المرحومة أسمهان تحس أنها فى حاجة إلى بذل مجهود إضافى للمساهمة فى تذليل هذه العقبات التى تعترض بروز موهبة أخيها . ومن أجل هذا أيضاً كانت أسمهان تشترط عليهم الاستعانة بفريد . عازفاً أومطرباً .

وبالإضافة إلى ذلك . فإن أسمهان حاولت فى البداية أن يكون صعودها الفنى مقترناً بأخيها . . وألا يتأخر بروز واحد منهما عن الآخر . . لأن أسمهان كانت مؤمنة إيماناً تاماً ومطلقاً بموهبة فريد . . فى الوقت الذى كان فريد يواجه فيه عقبة بعد الأخرى .

ولم تكن العقبات التى تواجه فريد تتعلق فقط بالمناخ الفنى السائد . . والمسيطر وقتها . . وإنما كانت تتعلق أيضاً بالطريقة التى بدأ بها حياته الفنية . إن أبرز مساوئ تلك الطريقة كانت الأسلوب الذى ينطق به فريد بعض الألفاظ – كالراء والحاء مثلا – مما يجعلها فى النهاية تخرج فى حالة قلقلة لم يكن يألفها الذوق المصرى فى الغناء وقتها . . وهو الأمر الذى يضع من البداية حاجزاً من الغربة بين المطرب ومستمعيه .

ولكن . . إذا كان فريد قد عانى من تلك العقبات فى البداية . . فإنه كان يتمتع أيضاً بموهبة أخرى غير موهبته الصوتية : إنه كان قوى الإرادة ومشحوناً بالإصرار وعنيداً إلى أقصى درجات العناد . إنه لم ييأس ولم يستسلم ولم يتراجع أو ينسحب . . وإنما اعتبر تلك العقبات تحدياً إضافياً لا بد له من أن ينجح فى مواجهته من البداية .

ومن البداية حتى النهاية نجح فريد فعلا إلى أقصى مدى فى أن يكسب معركته ويحقق شعبيته ويفرض موهبته التى حاول البعض أن يرفضها فى البداية . . إن الذين رفضوه . . كانوا فيما بعد هم الذين استمعوا له وأعجبوا به وصفقوا له وانفعلوا به وتحمسوا لموهبته .

ولأن لكل معركة دروسها ، فإن الدرس الذى خرج به فريد الأطرش من معركته لإثبات نفسه فى تلك الفترة . . كان هو الإحساس المطلق بسطوة الجمهور . . والولاء المطلق لرغبات الجمهور . . والتركيز المطلق على تحسس رغبات الجمهور .

لقد كان فريد الأطرش فى بدايته مبشراً بتطور كبير . . ولكن تلك المعركة المبكرة خلقت فى داخله الإحساس بأن يكون محافظا كبيرا . إننى ربما اختلفت فنياً مع فريد فى هذه النقطة . . فإننى شخصياً اخترت لنفسى من البداية طريقاً عكسياً . . وفضلت أن أبدأ فنياً من الموجود فعلا . . لكى أحاول بعد ذلك السعى إلى تطويره .

ولكن فريد كانت له ظروف أخرى ألزمته من البداية بأن يكون محافظاً فى تطوره . . بحيث إنه بدأ فنياً بمحاولة تطوير الأساليب السائدة فى الموسيقى والغناء . . لكى يضطر بعدها إلى توقيع هدنة . . أو التوصل إلى حل وسط . . يجعله يمارس محاولته للتطوير فى حدود الموجود فعلا .

وكان صوت فريد الأطرش هو سلاحه الأول فى كل معاركه الفنية . . لأن صوته كان موهبة فى حد ذاتها تضيف الكثير إلى الأصوات الموجودة والمنتشرة .

كان صوت فريد الأطرش يحمل من البداية كل بصمات الموهبة والاختلاف والتميز .

فمن الناحية المبدئية كان صوته سليماً . . نقياً . . يتمتع بكل الصفات الفنية اللازمة للنجاح كمطرب .

ومن ناحية أخرى كان صوته واسع المسافات جداً ومتعدد النغمات . . بحيث إن القرار والجواب فيه ممتازان للغاية . . وبحيث إنه يستطيع فى النهاية أن يحرك مشاعر الناس بغير حدود . . فينفعلون معه ويصفقون له صائحين : الله . . .

لم يكن صوت فريد الأطرش هو صوت إنسان يغنى . . ولكن كان صوت إنسان يطرب . . والفرق كبير بين النوعين ، فالأول ممتاز . . ولكن الثانى هو الموهوب . . والمغنى

ربما يثير حماس المستمع . . ولكن المطرب يلهب أكف المستمع بالتصفيق .

ولأن فريد واجه من البداية محاولات لرفضه . . فإن ولاءه للتصفيق كان حتى النهاية تأكيدا يراه هو ويسمعه بأذنيه لسوء تقدير الذين رفضوه فى البداية . . وتأكيداً لحسن تقديره هو لإحساس الجمهور وانفعالاته .

إن الجمهور كان موجوداً دائماً فى تفكير فريد الأطرش وغنائه وألحانه . .من البداية حتى النهاية . وحينما أعطى فريد مرة إضافة صوتية جديدة ومتميزة للجمهور . . ورأى بعينه كم يتذوقها ويستحسنها ويطرب لها الجمهور . . فإنه ظل يستخدمها بعد ذلك بصفة دائمة . . كلما أراد أن يرضى الجمهور . . أوكلما أراد هو أن يحس برضاء الجمهور . . لأنه فى الحقيقة كان يحصل على النتيجة فوراً . . والنتيجة كانت هى دائماً : مزيداً من تصفيق الجمهور واستحسانه ورضائه . .

ولقد ساعدت الفترة الأولى من عمل فريد عند بديعة مصابنى . . فى أن يكون إحساس فريد بالجمهور جاداً ومستمراً . . ربما من أجل هذا مثلا كانت الإيقاعات الراقصة . . والاسكتشات الغنائية الشعبية ، هى من أفضل ما قدمه فريد الأطرش لمستمعيه . . ومن أجل هذا أيضاً كان الجمهور يحب أن يستمع دائماً إلى المواويل من فريد الأطرش . . مما كان يجعله ، خصوصا فى الحفلات العامة ، يشير للفرقة الموسيقية بأن تبطئ من عزفها . . لكى يرتجل هو موالا بصوته الموهوب . . مما يجعل الجمهور يصيح طرباً وإعجاباً بمجرد أن يغنى فريد : ياليل ياعين . . أووف أوف .

لقد أحس الجمهور بأصالة المطرب فى صوت فريد الأطرش .

وأحس الجمهور أيضاً بذرة العظمة فى ألحان فريد الأطرش . .

فى الواقع لو أننا أخذنا لحناً واحداً مثل « أنا . . واللى باحبه » . . الذى عبر فيه فريد عن موجة التانجو الغربية التى كانت سائدة وقتها . . لوجدنا فيه بذرة النبوغ واضحة فى أحلى وأجمل صورها .

إن التركيبة الموسيقية التى ابتكرها فريد فى هذا اللحن لا يمكن أن تخرج إلا من عقل موسيقى نابغ يضع فى الجملة الموسيقية من الهندسة والفن ما يضعنا فى النهاية أمام موهبة قريد الموسيقية كاملة .

إننى ربما أستطيع أن أضرب أمثلة عديدة فى هذا الاتجاه من بين أعمال فريد الأطرش مثل « وياك . . وياك . . مطرح ما تروح وياك » . . أومثل أغنية « يا زهرة فى خيالى » . . التى أثبت فيها فريد الأطرش مدى تفتحه المبكر على الموسيقى الغربية . . ومدى قدرته على التطوير فى الحدود التى لا تخرج موسيقانا عن طابعها الأصلى وإطارها الشرقى .

إن هذا الطابع نستطيع أن نجده فى كثير من الأعمال الموسيقية التى تركها لنا فريد الأطرش ، ومعظمها أعمال نستطيع أن نجد فيها الجملة الموسيقية التى تتمتع بالأصالة والجمال والتميز . . وفى الوقت نفسه يمكن الانتفاع بها فى إطار عالمى .

ولكن فريد ، بقدر ما كان يتمتع بالموهبة والحماس والعناد . . بقدر ما كان أيضاً يتمتع بالقدرة على الملل فنياً بسرعة .

كانت حياة فريد الأطرش لا تترك له مجالا للتفرغ فترة كافية من أجل الاستمرار فى تأكيد وتدعيم وتثبيت لون موسيقى ابتكره هو.

إن فريد كان يفضل الحياة الصاخبة . . المرحة . . والمسلية . . بحيث إننى مؤمن تماماً بأنه لوكان قد استثمر حياته بشكل مختلف . . لترك لنا أضعاف ما ترك . . ولحقق لنفسه من الثروة أضعاف ما حققه . . ولكانت الموسيقى الشرقية قد أخذت منه أضعاف ما أخذت .

ولكن فريد كان يحب الحياة . . تماماً بمثل حبه للجمهور . . وبمثل حبه لفنه . . إن الجميع أخذوا منه حظاً متساوياً من الاهتمام والإقبال . . بحيث إن المنافسة كانت مستمرة بين الثلاثة دائماً – الحياة والجمهور والفن – حتى اليوم الأخير من حياة

فريد الأطرش .

ولم يكن فريد متميزاً فقط كمطرب وكملحن . . ولكنه كان متميزاً أيضاً كمستمع .

فى الواقع أن إحدى مواهب فريد الأطرش كانت قدرته على أن يضع يده فوراً على الشيء الجميل والجديد فى أى لون من ألوان الغناء والموسيقى . . وحتى فى طريقة سماعه لأية أغنية ، أو لحن جديد . . فإنه يستمع بإحساس الفنان العريق . . العادل مع نفسه . . ومع أعمال الآخرين . . إن وجود سوء تفاهم مثلا ، أو حتى وجود خلاف شخصى ، بينه وبين صاحب العمل الذى يسمعه . . لا يمنعه مطلقاً عن أن يقرر فوراً أن هذا العمل ممتاز . . أوجديد . . أومبتكر .

إن هذا ليس أمراً مألوفاً دائماً . . بل إن المألوف أن تتأثر الأحكام الفنية للناس بمشاعرهم الشخصية . . ولكن هذا العيب العام لم يكن موجوداً على الإطلاق فى فريد الأطرش . لقد كان فى هذا المجال نموذجاً للإنسان البسيط . . الفنان . . الخالى من الحقد . . أوالغيرة . . والمشحون بالحماس لكل جميل وجديد فى الفن .

وبالإضافة إلى ذلك فإن شخصية فريد نفسها كانت خالية تماماً من سوء النية . . أو المكر . . أو الخبث . . وعلى العكس من ذلك . . كان فريد صادقاً دائماً . . ومباشراً دائماً . . وصريحاً وطيب القلب . . ربما إلى درجة السذاجة فى بعض الأحيان .

ولكننى لا أريد التعرض إلى شخصية المرحوم فريد الأطرش الآن . . لأننى أريد التركيز أولا على فنه . . فهذا هوالذى سيعيش منه فى النهاية . .

إن فن فريد الصوتى نستطيع أن نجده واضحاً فى كثير من أعماله الكبيرة مثل : أول همسة . . الربيع . . بنادى عليك . . حبيب العمر . . نجوم الليل .

فى تلك الأعمال ، وكثير غيرها ، نستطيع أن نضع أيدينا على موهبة فريد الأطرش الصوتية كاملة . موهبة تستطيع أن ترغم المستمع على أن يصيح : الله . . وعلى أن يكتشف فى المطرب أحسن ما فيه . . وأجمل ما لديه . لقد كان صوت فريد الأطرش

واحداً من الأصوات القليلة التى لها شخصية . . وقد أسعد الناس بهذا الصوت سنوات طويلة . . فى ألوان متعددة كان فيها الشعبى والاستعراضى والطويل والقصير . . والحزين والمفرح .

ولقد ربطتنى بفريد الأطرش صداقة فيها من العمق بأكثر مما فيها من الطول . . وخلال السنوات العشرة الأخيرة من حياته كانت تلك الصداقة قد توثقت إلى أقصى درجة ممكنة . . وخلال تلك الفترة كان فريد هو الصديق الذى لا يعوض . . وكان هو أيضاً الوفاء كله . . والطيبة كلها .

والواقع أن فريد الأطرش كان وفيًّا جدًّا جدًّا لأصدقائه . . بل إننى أعرف علاقات صداقة فى حياة فريد استمرت ثلاثين وأربعين سنة . . إن فريد لم يكن يحب أن يغير أصدقاءه . . كما أنه هو أيضاً لم يكن يحب أن يصبح صديقاً لأحد بسرعة .

ولم يكن فريد يحب أبداً أن يستبدل صديقاً قديماً بصديق جديد أكثر نفعاً . . إن الصداقة عنده كانت لوجه الصداقة . . قبل أن تكون لوجه المصلحة أو المنفعة أو أى شىء آخر .

وبقدر ما كانت هذه كلها مزايا حقيقية فى فريد الأطرش . . بقدر ما كان يعانى من عيب آخر . . هو بدوره نتيجة لحسن ظنه الشديد وطيبته الدائمة مع الحياة ومع الناس .

كان عيب فريد أنه لا يجيد اختيار أصدقائه !

ففيما عدا استثناءات قليلة . . لم يكن أصدقاء فريد الأطرش من الإخلاص بحيث يدفعونه لإعطاء المزيد من حياته للفن . . ولم يكونوا من الثقافة بحيث يستفيد هو من مجلسهم ثقافيًّا . . ولم يكونوا أصحاب بصيرة يضعون أيدى فريد على المستقبل قبل أن يفاجأ به . . ولم يكونوا من الحكمة بحيث يرغمون فريداً على أن يدرك أن الفنان هو فنان أولاً قبل أن يكون شريك أنس أو صديق سهرة أو شريك مائدة .

إن الصديق يصبح خطراً كبيراً حينما يعجز عن تنبيه صديقه إلى عيوبه ، قبل أن يخاطب فيه مزاياه . . وفى هذا المجال فإن حكاية عقدة الاضطهاد التى كانت تشاع عن فريد الأطرش هى مجرد إشاعة خلقها عدد من أقرب أصدقائه هو . . ونقلوها إليه وألحوا بها على أسماعه . . إلى أن أصبح هويؤمن بها فى اللحظات غير المشرقة من حياته .

إن الصداقة من جانب فريد الأطرش كانت لوجه الصداقة . . ولكنها من جانب بعض أصدقائه كانت لوجه المصلحة ، أوالمنفعة ، أوحتى مجرد الأنس والتسلية .

ولم يكن من الممكن مشاهدة فريد غالباً إلا وسط حزام من الأصدقاء . لقد كان فريد حريصاً دائماً ، وفى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، على أن يعيش حياته وسط مجموعة أصدقاء . ولم تكن مائدته تخلو دائماً من خمسة عشر أوعشرين صديقاً فى أى يوم من الأيام .

إن تفسيرى الشخصى لهذه الظاهرة فى حياة فريد هو أن كان لديه إحساس دفين بأن الحياة قد صدمته مبكراً . . بحيث إنه أصبح فيما بعد يخشى من نفسه . . أويخشى أن ينفرد بنفسه . . لهذا فإنه كان يدفن نفسه دائماً وسط مجموعة من الصداقات الدائمة التى تجعل الحياة بالنسبة له أكثر احتمالا . . والمستقبل أقل قسوة . . والماضى أقل عبثاً .

من أجل هذا كان مجلس فريد الأطرش هو دائماً مجلس الأنس والسرور والتفاؤل والسعادة والضحك والتسلية و« الفرفشة » و . . شىء من الغناء والموسيقى .

ومن أجل هذا فإن فريد كان حريصاً على أن يبدأ اندماجه اليومى فى هذا الإطار من اللحظة الأولى التى يستيقظ فيها من النوم . إن مجموعة أصدقائه موجودة فى حياته ابتداء من تلك اللحظة . . وهم معه طوال اليوم فى كل لحظة . حتى وهوضيف فى أى مكان أوأى منزل أوأى صديق . . فإنهم معه دائماً .

والأستاذ فريد الأطرش كانت حياته تختلف عن نفسه على قدر كبير . . فهو

فى حياته الخاصة مرح جداً . . وصاحب نكتة . . ولا ينفوه إلا بالكلمة الضاحكة الحلوة ، وكان لا يحب الحزن فى جلساته وكان يعيش الحياة بالعرض . . فهو يسهر الليل إلى الخامسة أو السادسة صباحاً مع أصدقائه المختارين . . وينام للظهر ، ثم ينهض من النوم ليلتقى بأصدقائه ثانية . . ويتناول طعام الغداء ، ويجلس معهم إلى السادسة أو السابعة مساء ، ثم ينام ساعتين إلى التاسعة مثلا وينهض من الفراش ليستأنف السهر مع الأصدقاء إلى الصباح . .

وفى كل هذه المجالس هناك الضحك ، والنكتة ، والسخرية ، والبهجة ، والسرور ، ومع ذلك كنا نراه فى أغانيه خصوصاً الطويلة منها تغلب عليها سمة الحزن . . خصوصاً فى طريقة إخراج صوته أو حتى فى الجملة اللحنية ، ولعل السبب فى ذلك أنه كان يحتاج إلى الأسرة التى لا ينعم بها . . وإلى الحيوية التى تنكرت له !

ومع الحياة التى كان يعيشها فريد بالطول وبالعرض كنت أتساءل : متى يجد وقتاً لكى يلحن ؟

وأين الوقت الذى ينفرد به بنفسه طويلا . . لينتج كل هذا الإنتاج الغزير فى وسط حياته الصاخبة ؟

وسرعان ما جاءنى الرد . .

فريد الأطرش كان موهوباً ، وواثقاً من نفسه ثقة كبيرة .

فاللحن فى يده لا يستغرق أكثر من دقائق معدودة . .

كان يضع الكلام الذى سيلحنه . ثم يلحنه . . ولا يغير فيه أبداً مهما كان . . ولا يضيع وقته فى « الوسوسة » عملا بالمثل القائل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! .

وكان يسعد فريد بأن يسمعنى بعض ما يلحنه بصفة خاصة . .

ربما كان هذا اعتقاداً منه بأننى أحس به أكثر من الغير . .

وعندما أحاول أن أستوضحه . . لماذا لا تكون الجملة الموسيقية هكذا . . كان يدافع

عن رأيه بحماس شديد ، حماس يجعلنى أحس بأن ما يلحنه ينطبق عليه القول المأثور : ليس فى الإمكان أبدع مما كان . .

والكلام عن فريد الإنسان قد يطول . .

فهو لا يسىء إلى أحد ، ولهذا لا يمكن لأحد أن يقول إنه أساء إليه . . أوكان سبباً فى ضرره .

على العكس ، ربما كان فريد قد لحقه الضرر من بعض أصدقائه بلا سبب . . كان وفياً . . وكان صديقاً . . وقد أجهد نفسه إجهاداً كبيراً فى حياته الخاصة . .

ولو قدر له أن يعطى جزءاً أكبر لفنه لأضاف إلى الثراء الفنى الذى أعطاه للغناء العربى . . ثراء آخر كبيراً . .

وبين ذكرياتى مع الفنان الراحل فريد الأطرش . . أنه كان يتمنى أن أركب بجانبه ولو مرة واحدة الطائرة ، وعرض على مراراً أن يدفع هو ثمن التذكرة إلى أى بلد أريدها فى العالم ، حتى ولوكانت أمريكا أو اليابان . . لا لشئ إلا لمجرد رؤيته ماذا أفعل وأنا فى الطائرة .

وفى إحدى المرات دعانى لكى أسافر معه إلى بيروت ، وفى لحظة من اللحظات أصر على هذه الدعوة وقبلتها فى غفوة من التفكير . .

وفى آخر لحظة . . هربت . .

وكان لهذا الحادث وقعه الشديد عليه ، وتأثر من هذا الهروب . . ثم صالحته بعد ذلك . . ولكنى لم أدفع له ثمن تذكرة الطائرة التى دفعها !

وكثير من الناس كانوا يعتقدون أن العزيز الراحل فريد الأطرش يدعى المرض ليستجلب عطف الجماهير ، ولكننى أشهد بأن ذلك كذب ، فقبل وفاته بثمانية أعوام كان فريد يقوم بتصوير فيلم لحساب مؤسسة السينما المصرية وكان الدكتور حاتم فى ذلك الوقت وزيراً للإعلام والثقافة ، وذهب الأستاذ فريد الأطرش ، وتورمت قدماه ،

حتى إنه لم يتمكن من النوم إلا وهو جالس على المقعد وخلفه الوسادات لصعوبة نومه وهو راقد فى فراشه . .

كلمنى طبيبه الدكتور عوض إبراهيم ، وقال لى :

– لو استمر فريد فى العمل فنى ذلك نهاية حياته . . فأرجوا الاتصال بالمسئولين لسفره إلى لندن للعلاج . .

اتصلت تليفونياً بالدكتور محمد عبد القادر حاتم ، وأخبرته بما قاله الأطباء ، وقلت له :

– إن بعض المسئولين فى مؤسسة السينما يعتقدون أن الأستاذ فريد ليس مريضاً ، وأن كل ما يريده هو الذهاب إلى لندن وباريس للتنزه كعادته ، ونقلت له ماقاله الدكتور المعالج بالحرف الواحد ، فأمر الدكتور حاتم على الفور بإيقاف تصوير الفيلم ، وسفر الأستاذ فريد إلى لندن للعلاج . .

وسافر فريد . وسألت الأطباء :

هل حقيقة أن فريد كان فى خطر؟

فقالوا لى :

إن الفنان فريد الأطرش لا يحتمل الحياة أكثر من ستة شهور . .

ولكن الله خيب ظنهم ، وعاش بعد ذلك ثمانية أعوام بإيمانه وحبه للحياة .

وكان فريد يتسلى أحياناً بلعب القمار .

لم يكن هذا غريباً . . ففريد كان يقامر فى كل لحظة بصحته وحياته . . فليس غريباً إذن أن يقامر من وقت لاخر بنقوده .

ولقد حدث أن التقينا مرة فى مدينة باريس .

كنت أنا وحدى . . وكان هو فى صحبة الممثلة الأجنبية « ريتا هيوارث » . . التى كانت تربطها به فى تلك الفترة صداقة حميمة . . تجعلهما يقضيان ، أغلب

وقتهما معاً .

وقرر فريد أن يدعونا – ريتا هيوارث وأنا – لمشاهدة سباق الخيل .

وعندما بدأ السباق طلب منى فريد أن أرشح له رقماً يلعب عليه . . إننى حاولت أن أعتذر له بأن خبرتى منعدمة تماماً فى هذه الأشياء . . ولكن أصر على طلبه . . وأكد ذلك بقوله : لازم ترشح لى نمرة . . لوخسرت أنا أتحمل الخسارة . . ولو كسبت يبقى نقسم المكسب بالنص .

وكنت أنا شخصياً أتفاءل برقم « سبعة » . إن السلم الموسيقى يتكون من سبع درجات . . وقوس قزح يتكون من سبعة ألوان . . ورقم سبعة يتكرر هو نفسه كثيراً فى بعض آياة القرآن الكريم .

وضحك فريد من أفكارى أنا . . وبدأ يلعب .

وكانت المفاجأة هى أنه كسب ما يعادل أربعة آلاف جنيه !

وكانت المفاجأة الثانية هى أن فريد صمم فعلا على أن يقتسم معى ما كسب : يأخذ ألفين . . وآخذ ألفين من الجنيهات .

وحاولت أنا أن أرفض ، على اعتبار أن المسألة كلها كانت مزاحاً من أولها إلى آخرها .

ولكنه أصر . . بل لم يهدأ . . إلا بعد أن اقتسمت المبلغ فعلا !

وفى اليوم التالى دعوت فريد إلى الغداء . . فقد كنا نقيم فى تلك الفترة فى فندق واحد فى باريس ولكن فوجئت عند حضوره ، بأن معه عشرين صديقاً ، هم « شلته » الدائمة فى باريس ، التى تحقق له فى الغربة نوع الحياة التى يمارسها فى القاهرة . . أو فى بيروت .

ولقد كان هذا كله جزءاً من إقبال فريد على الحياة . . وجزءاً من إصراره على أن يعيش حياته بالطول والعرض . . ولا يهم بعد ذلك أى ثمن يدفعه من أمواله . . أو صحته . . أو حياته .

وكل شيء فعله فريد الأطرش . . فإنه كان يفعله بإخلاص وحب شديدين . . إذا أحب . . فهو عاشق مائة فى المائة .

وإذا لعب . . فهو مشغول عن أى شيء آخر مائة فى المائة . .

وإذا ضحك . . فهو معافى من الهموم مائة فى المائة . .

وحتى إذا أكل . . فهو متفرغ تماماً للطعام مائة فى المائة .

لقد دعانى مرة إلى الغداء فى باريس . . بمناسبة وجود وكيل جمعية المؤلفين والملحنين القادم من لندن .

كانت الدعوة عادية . . ولكن الذى لم يكن عادياً إصرار فريد على أن يكون الطبق الرئيسى فى الطعام هو « لحمة الرأس » .

صحت أنا مندهشاً : لحمة رأس فى باريس ؟ إننى لم آكلها فى القاهرة . . فهل آكلها فى باريس ؟

قال فريد : نعم .

وفعلا . ظللنا نتجول بالسيارة أكثر من ساعة إلى أن استطاع فريد أن يعثر فعلا على مطعم يقدم « لحمة الرأس » . . وهو مطعم كان مملوكاً لأحد أصدقائه التونسيين المقيمين فى باريس !

وبقدر ما كان فريد دمثاً فى أخلاقه . . ووفياً فى صداقته . . وكريماً فى حياته . . فإنه كان دقيقاً فى مواعيده إلى درجة التعصب . . فإنه يحب أن يلتزم بمواعيده مع الآخرين دائماً . . ويحب بالتالى أن يلتزم الآخرون بمواعيدهم معه تماماً . . إن أقل إخلال بموعد معه هو إهانة . . أو على الأقل إهمال ربما يستحق منه أن يقاطع ذلك الإنسان تماماً .

لقد أجهد فريد نفسه فى حياته الخاصة كثيراً جداً . . وإننى أتصور لو أنه رصد ربع ماأنفقه فيها « للفن » . . لأدى ذلك إلى إثراء الفن الغنائى والموسيقى عندنا

أضعاف أضعاف ماقدمه فعلا .

لقد امتدت مساهمة فريد الأطرش فى فننا الغنائى والموسيقى إلى جبهة واسعة جدًّا ، شملت كل الألوان . . من الأغنية القصيرة ، إلى الطويلة . إلى الاستعراضية . إلى الشعبية . . إلى الأوبريتات .

ولو أن فريداً كان يمتلك موهبة الاستمرار فى المحاولة والإصرار عليها . . لقدم لنا أعمالا خطيرة فى المسرح الغنائى . . ولكان بالتالى قد كسب للمسرح الغنائى جمهوراً عريضاً .

وقد عمل الفنان الراحل الأستاذ فريد الأطرش من البداية فى صالة « بديعة مصابنى» مع المطرب الأستاذ إبراهيم حمودة وعلى ماأذكر أنه ابتدأ عازفاً للعود . . ثم بعد ذلك أخذ يغنى فى هذا الجو . . جو صالة بديعة مصابنى . . فقدم الأغانى الراقصة ذات الطابع الإيقاعى ، التى يرقص عليها الغير .

وبعد فترة دخل الفنان الراحل مرحلة أخرى من مراحل حياته الفنية ، حيث بدأ يعتنى بغنائه تدريجياً مستفيداً بخبرته فى المجالات الفنية . . ويلحن ألحاناً لا يغنيها إلا مطرب ذو صوت مقتدر .

وبعد ذلك حاول الفنان الراحل فريد الأطرش تقليد المصريين فى أهم ميزة يمتازون بها فى الغناء الشرقى ، وهى « القفلة » المصرية ، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير .

وقد ساهم المرحوم فريد الأطرش فى إثراء التراث العربى فى الغناء والموسيقى . . إلا فى ناحيتين . . . هما الدور والموشح . . فلم يلحن فى هذين المجالين . . ولكنه أثرى الغناء فى الأغنية الفردية الطويلة والقصيرة الحديثة . .

ففى مجال الأغنية الطويلة ، له روائع طويلة الحياة ، كأغنية « أول همسة » وأغنية « الربيع » وأغنية « بنادى عليك » وأغنية « حبيب العمر » وألحان أخرى . . وهذه الأغانى الطويلة التى تمتد لأكثر من نصف ساعة ، ربما كانت تصل فى الحفلات إلى

حوالى ساعة ونصف الساعة . . .

ولم يكن بمستطاع أن تتحمله الجماهير إلا إذا كان له صوت قادر له مسافات رائعة . سواء فى « قراره » أو فى « وسطه » . . أو فى « عاليه » . . . وله أيضاً المقدرة على تأديته بما يريد فى جميع هذه الأوضاع بالقدر المتساوى من القدرة ، يجب أيضاً أن يكون له استعداد وهذا طبيعى لأنه ملحن . . فى أن يضيف فى كل مرة يغنى فيها الجملة إضافات جديدة ، جميلة وممتعة ، تصل إلى آذان الناس ليستمتعوا بها ولا يملوا سماعها وهو يكررها . . مرة . . مرتين . . عشر سنوات ! .

وهذا لا يكون إلا فى صوت عظيم . .

وهذا ماكان عليه المرحوم الفنان الراحل فريد الأطرش . .

أما فى مجال الأغنية الشعبية ، فقد ساهم بعشرات الأغنيات التى تتميز بالإيقاع الشعبى الراقص ، واللحن الشرقى الأصيل ، والبساطة فى التلحين وعدد المقامات التى يلحن بها هذه الأغنيات ، حتى يمكن للجمهور أن يغنيها ، ويرددها . .

وعلى سبيل المثال أتذكر أغنيات كثيرة له . . مثل « سافر مع السلامة » و . . « ماقالى وقلتله ، ولا كتب على وراق الشجر ، ونورا يانورا » ، ومثل هذا كثيراً جداً . .

وفى عالم الأغنية الحديثة خرج الفنان فريد إلى آفاق أخرى غير اللون العربى . . ولكنه بإحساس الأصالة العربية ، اختار ما يوافق المزاج العربى من نقله لبعض الألوان الغنائية الأوربية . . كالتانجو مثلا ، لأنه قريب من حيث « الميلودى » أو بعبارة أخرى من حيث الجملة الملحنة فى التانجو وقربها من الرومبا التى هى من معالم الغناء العربى .

ومن هذه الأغانى على سبيل المثال « يازهرة فى خيالى » و« أنا واللى باحبه » ، وأغنيات أخرى من هذا النوع .

وأذكر عن الفنان فريد الأطرش . . أنه كان يحب الجماهير ، لأن الجماهير

كانت تحبه . ..لذلك كان يحاول جاهداً إرضاء الجماهير بأى شكل كان . .

ومن ملامح فن الفنان فريد الأطرش إحساسه بأن الجماهير تحب الموال سواء كان هذا الموال يبدأ بياليل ياعين ، على الطريقة المصرية ، أو بأوف أوف على الطريقة السورية . فكنا نراه يعطى هذا اللون من خلال كل أغنية شعبية . .

لقد كان فريد مطرباً شعبيًّا وجماهيريًّا من الدرجة الأولى . .

كان يجيد معرفة رغبات الجماهير ، ويجيد التعامل معها ، ويجيد تلبيتها .

ولكنه سرعان ماكان يحس بالملل .

وأحياناً كان الملل يصيبه قبل أن ينتهى من اللحن الواحد .أو الأغنية الواحدة .

إننى ذكرت من قبل أغنية « أنا . . واللى باحبه » . . كنموذج للتفكير الموسيقى الهندسى والنابغ والعالى المستوى .

ولكن ، قبل أن تصل الأغنية إلى منتصفها كنا نفاجأ بفريد وقد نقلنا موسيقيًّا إلى شىء آخر تماماً فى مقطع « انت روحى . . وانت قلبى . . إلخ » .

إن تلك النقلة تتميز طبعاً بالسهولة والشعبية والإيقاع الراقص . . كل هذا جميل . . ولكنها تمثل جوًّا آخر مختلفاً تماماً عن الجو الذى بدأ منه لحن « أنا . . واللى باحبه . . »

ولكن . . هكذا كان فريد الأطرش !

لقد أحب الجمهور دائماً ، وعمل له ألف حساب دائماً ، ونجح فى التعامل معه دائماً .

وفى وسط هذا كله استطاع فريد أن يحتفظ لنفسه بالشخصية الغنائية المتميزة الواضحة البسيطة المحبوبة .

فى الواقع أن فريد الأطرش كان فناناً عظيماً فى عصره . . وصديقاً لا يعوض فى صداقته . . وإنساناً لا يبارى فى بساطته .

محمد عبد الوهاب